المحاضرة الرابعة: أنواع الرحلة ومرجعيات التصنيف

انتساب أدب الرحلة إلى العلوم الإنسانية مسألة معقدة، لأن الرحلة هي رحلات بحسب تيماتها وأصناف رحالاتها تحولت من المعيش المادي أو الحلمي –الاستيهامي إلى نص تخييلي أساسه، في الحالتين، التجربة "الخارجية" و"الباطنية".(شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص39.)

لكن النظر إلى من الجانب البنيوي يجعلنا نرصد قواسم مشتركة بين النصوص الرحلية، إذ لا تخلو رحلة من سرد ووصف وتعليق من الأنا المحركة لكل هذه المشاهدات والمرويات والتخيلات والأحلام، مما يجعل نعت نص الرحلة: تسمية مفتوحة على احتمالات التنويع. (شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص40.)

لم تلتفت القواميس الأدبية المتخصصة وبدورها إلى تصنيف الرحلة ضمن المفاهيم، مما جعل الوعي النقدي في هذا المستوى مغيبا (شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص46).

تتداخل في تشكيل النص الرحلي العديد من الأشكال التعبيرية مما يجعل الفصل في مسألة تجنيسه مسألة يكتنفها الالتباس، ومن هذه الأشكال التعبيرية نذكر:

1–السيرة الذاتية:

لا يخلو نص رحلي من حديث عن الذات وتأمل لمسارها، وإن تجلى ذلك على نحو متفاوت ومتباين.

2–التراجم:

ترتبط التراجم بالنص الرحلي خصوصا في بعض الأنواع التي تستجيب لهذا الشكل، مثل الرحلات الحجية والزيارية، إذ يتحول الرحّالة إلى ترجمان للأعلام والفقهاء، والمتصوفة والأولياء، سواء الذين سمع عنهم أو صادفهم أو ناقشهم، كما توجد أنواع أخرى تجمع بين السير الغيرية والتراجم، خاصة في تلك النصوص التي يكون فيها الرحالة مرافقا لموكب رسمي بقصد تسجيل سير الرحلة، فتصير ذاته غائبة على حساب حضور الآخر.

3–التاريخ:

ولدت الرحلة في محضن التاريخ والجغرافيا وحينما صارت قائمة بذاتها لم تقطع الصلة بمصدرها، بل حوّلته إلى عنصر جوهري في تكوينها، فلم تسلم الرحلات من الاستشهاد بمقاطع من الكتب التاريخية، ومثال ذلك رحلة التيجاني وهو يستشهد بمقاطع من تاريخ ابن شداد والبكري، كما يلجأ إلى رواية بعض الأحداث التي عاصرها بأسلوب المؤرخ.

تحفل الرحلات التي يهيمن عليها الجانب التاريخي بمعطيات تمتزج فيها الأخبار بالخرافات والتقاليد، وهذا أمر حاضر في رحلات المؤرخين القدامى من الإغريق والعرب على حد سواء.

تتضمن جل الرحلات فقرات كاملة يؤرخ فيها المرتحل للفترة التاريخية التي استغرقتها رحلته مشيرا إلى الأحداث التي عاصرتها من منظور قائمة على المشاهدة والقراءة والتأويل فتتحلو الرحلة في بعض جوانبها إلى تاريخ خاص وحوليات يتم فيها تبئير عين الرحالة المنطلقة من ذاته وأفكاره وتصوراته واستيهاماته، فيتحول التاريخي إلى مشاهدات تلتقط ما يعزز الرحلة ويعطيها الطابع الذي يتوخى السارد إيصاله إلى القارئ (شعيب خليفي، ص57، 58).

4– الجغرافيا:

دونت الكثير من النصوص الجغرافية في الثقافة العربية، وعنت بوصف المسالك البرية أو البحرية، ومعالم البلدان وآثار، لأغراض تجارية أو علمية أو دينية، وتمثل فترة القرن الرابع الهجري حسب نيقولا زيادة مرحلة النضج في الجغرافيا العربية التي اتخذت أربع توجهات:

–العناية بأقطار العالم الإسلامي (مثل: البلخي، ابن حوقل، المقدسي)

–نوع تخصص في قطر واحد (مثل: البيروني في الهند، وابن فضلان في بلغار الفولغا).

–نوع تخصص في وضع المعاجم الجغرافية (مثل الحموي في معجم البلدان).

–اتجاه تخصص في وضع الموساعات الكبيرة (مثل: النويري في نهاية الأرب، صبح الأعشى للقلقشندي).

أدى هذا التراكم إلى ظهور صنفين من الرحلات الجغرافية: صنف يطوف البلدان لهدف علمي من أجل تسجيل المعلومات الجغرافية تسجيلا أمينا، وينتمي لهذا الصنف الجغرافيون الرحّالة، وصنف يجوب الأمصار لغرض تجاري أو ديني أو سياسي، ويجل مشاهداته التي يغلب عليها الجانب الوصفي البحت، فارتباط الجغرافيا بالرحلة أخذ تمظهرات ثلاث: التمظهر العلمي/ التمظهر الوصفي البحت/ التمظهر الأدبي والفني.

كما تحفل النصوص الرحلية بأشكال تعبيرية أخرى نذكر منها: السجلات الاجتماعية، الشعر، الرسائل، اليوميات، وغيرها، لذا يمكن القول أن وضع تعريف دقيق لأدب الرحلة أمر يتعذر ضبطه نتيجة هذا الانفتاح على غيره من أشكال الخطابات التي تتفاعل معه وتتداخل في تشكيل بنيته، لذا فالرحلة وفق هذا المنظور هي إحدى الأشكال الكبرى الأم للأدب (شعيب خليفي، ص68).